اضطراب التعليم في الأزهر

بين القديم والحديث

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لم تعمل اللجنة التي ألفت للبحث فى أسباب فساد التعليم فى الأزهر شيئاً ، بل لم تكد تجتمع حتى اختلف أعضاؤها خلافا شديداً ، لأن النظام الحديث الذى قضي فيه الأزهر ما يقرب من نصف قرن لم يعمل شيئاً فى توحيد آرائنا فى الإصلاح ، وتكوين الانسجام الواجب بين أهل البيت الواحد ، بل تركنا كما كنا قبله كثرة ترى الجمود على القديم فرضاً ، وقلة تمقت القديم وتبغض الجمود ، وترى أن آثاره الباقية فى الأزهر هى السبب فى فساد التعليم فيه

وبهذا تزعزع الإيمان بين الطلاب بصلاح التعليم فى الأزهر ، حتى تملكتهم الحيرة ، واستولى عليهم اليأس ، فهم لا يزالون يرون القديم آخذاً بخناقهم ، ولا تزال أساليبه فى التعليم مفروضة عليهم ، ولابد لهم من الأخذ بها فى دروسهم وامتحاناتهم ، لأن الطالب إذا لم يأخذ بها لم يمكنه أن يمضى فى التعليم ، ولا يلبث أن يرسب فى الامتحانات ويطرد من الأزهر وفروعه ، ولكنهم يسمعون كل يوم نقد هذه الأساليب القديمة ، يلقيه عليهم أنصار الإصلاح فى دروسهم ، ويقرءونه فى بعض الكتب الحديثة المقررة عليهم ، وفيما يطالعون من الكتب والجرائد والمجلات ، ويسمعونه فيما يُلقى عليهم من المحاضرات ، وقد تأثروا بكل هذا ، حتى صاروا لا يؤمنون بفائدة هذه الأساليب القديمة ، وأصبحوا لا يستسيغونها بعد أن تغيرت أذواقهم بما يطالعون من الأساليب الحديثة ، لأنها تختلف كل الاختلاف عن الأساليب القديمة ، فمن يتذوق إحداها لا يمكنه أن يستسيغ الثانية ، ولا شك أن النجاح فى شىء من الأشياء إنما يقوم على أساس الإيمان به ، فإذا فقد الإيمان به كان المضى فيه عبثاً ، ولم يمكن الحصول منه على ثمرة نافعة

وقد كان الطلاب فى الأزهر قبل النظام الحديث يؤمنون بالقديم كل الإيمان ، لأنهم لم يكونوا يسمعون شيئاً من نقده ، ولم يكن الكلام على الإصلاح الحديث قد وصل بعد إلى أسماعهم ؛ وكانوا يقضون كل أوقاتهم بين جدران الأزهر ، فلا يختلطون بغيرهم ممن تربوا تربية حديثة ، ولا يستمعون إلى محاضرات علمية أو أدبية تلقى فى نادٍ أو محفل ، وكانوا لا يعرفون إلا أساليبهم القديمة فى التعليم ، ولا يدرسون إلا العلوم القديمة وكتبها ، فألفوا أساليبها وألفتهم ، وامتزج حبها بنفوسهم ودمائهم ، وآمنوا بفائدتها إيماناً لا يشوبه شك ، لأنهم لم يطالعوا من آثار الحديث ما يزعزع عقيدتهم فى القديم ، أو يؤثر على أذواقهم التى تألفه وتستسيغه

وقد كان لإيمانهم بالقديم على فساده ثمرته فيما أخرجوا لنا من كتب تدل على براعتهم فى قديمهم ، وأنهم كانوا يتقنونه كل الإتقان ، ويجيدون أساليبه كل الإجادة ، وقد أخرجوا لنا من تلك الكتب ما لا يحصى ولا يعد ، ما بين مختصرات بلغوا الغاية فى اختصارها إلى حد التعقيد الذى كانوا يعشقونه ، ويتنافسون فى طلب فهمه وحل رموزه ، وما بين مبسوطات بذلوا فيها كل جهودهم فى التعليق على تلك المختصرات . وقد بلغ بهم عنايتهم بذلك أنهم كانوا لا يكتفون بشرح واحد على مختصر ، بل كانوا يضعون على المختصر الواحد ما لا يحصى من الشروح ، ثم يضعون على تلك الشروح ما لا يحصى من الحواشى ، ثم يضعون على تلك الحواشى ما لا يحصى من التقارير ، حتى ملأوا دور الكتب بمؤلفاتهم ، وضاقت رحابها على سعتها بآثارهم

وليت الأمر وقف بطلابنا الآن عند تلك العوامل التى زعزعت إيمانهم بالتعليم فى الأزهر ، بل هناك عامل آخر قضى

عليه كل القضاء ، وهو عامل له خطره على الأزهر وأهله ، لأنه قد حدا ببعض طلابنا أن يجعلوا من الأزهر وسيلة تعدهم لمعاهد أخرى لا صلة لها به ، وتجعله فى منزلة مدرسة ثانوية تعد الطلاب لما بعدها ، فيصبح وليس هو الأزهر الجامعة الكبرى للمسلمين ، وليس هو الأزهر الذى يجب أن يخرج لنا فطاحل العلماء ، وأئمة الدين

فقد رأى طلابنا بعد أن أخذوا بالنظام الحديث أنهم صاروا أهلاً لوظائف الدولة ، لأنهم درسوا فيه العلوم الحديثة التى تؤهلهم لهذه الوظائف ، ولكنهم حينما يقصدون من بيدهم أمرها يجدونهم ينظرون إليهم كما كانوا ينظرون إلى أهل الأزهر القديم ، ولا يسمحون لهم بشىء منها إلا بشق الأنفس ، وبعد شفاعات ووساطات تذهب بكثير من كرامتهم ، وتجعلهم يسخطون على التعليم الذى يزهد الناس فيهم ، ولا يجعلهم يرغبون فيهم كما يرغبون فى غيرهم ، وتذهب بهذا البقية الباقية من إيمانهم به ، وقد بدا أثر هذا العامل عليهم فيما يطلبه أبناؤنا فى كلية اللغة العربية من فتح باب معهد التربية لهم ، ليتخلصوا فى نهاية أمرهم منا ، ويصيروا إلى من بيده أمر تلك الوظائف ، وهذا أمر له ما بعده ، وستكون نهايته إن صبرنا عليه سعى الطلاب جميعاً فى التخلص منا

فيا قوم إذا كنتم تريدون الوصول إلى سبب فساد التعليم فى الأزهر فهذا بيانه ، وإذا كنتم تريدون إصلاحه فاعملوا على وضع تعليم يؤمن به الطلاب ، ويؤمن به من يتصلون بهم من الذين تربوا تربية حديثة ، ويوفق بين آرائنا المضطربة ، ويقرب بين أذواقنا المختلفة ، ويجعلنا كلنا نؤمن بالإصلاح والتجديد ، ونتفق على كره الرجعية والجمود

ودعونا من هذا الترقيع بين القديم والحديث ، فإن الثوب القديم يألف الناس لبسه ولو كان بالياً ، أما الثوب المرقع من القديم والحديث فإنه لا يألف لبسه أحد ، ومن يلبسه يكون ضحكة بين الناس . وقد مضت علينا أزمان ألفنا فيها القديم خالصاً ، وكنا فى عزلة عن الناس لا يرونا ولا نراهم ، ولا نطلب منهم أن يولونا عملاً من أعمالهم ؛ فكنا فى راحة منهم ، وكانوا فى راحة منا ، ولم يضطرب أمرنا هذا الاضطراب الذى يلفت الناس إلينا ، ويجعلهم يتطلعون إلى أحوالنا ، ولا يرضيهم إلا أن تكون مألوفة لهم

وما هذا الترقيع بين القديم والحديث ؟ لقد صار بنا إلى أن ندرس فى القديم ما ينقضه الحديث ، وندرس فى الحديث ما ينقضه القديم ، فندرس مثلاً فى تاريخ الفلسفة على الأسلوب الحديث أن الفلاسفة كانوا رجالاً من أرباب الفكر الحر ، ونعد هذا مفخرة من مفاخرهم ، فإذا تركنا تاريخ الفلسفة إلى علم التوحيد درسنا فيه على الأسلوب القديم ، أن الفلاسفة أعداء الدين ، ونفرنا الناس بكل وسيلة من فلسفتهم . وهكذا ندرس فى تاريخ الأدب العربى على الأسلوب الحديث أن كتابة التدوين والتصنيف بدأت فى الانحطاط من أوائل الحكم العثمانى ، فاخترع تأليف الحواشى والتقريرات والرسائل الخاصة بشرح قاعدة أو جملة أو قصيدة ، وضعفت عباراتها وازدادت تعقيداً وغموضاً ، حتى أصبح ذلك مما يتنافس فيه ، ويظن فى صاحبه العلم والدقة ؛ فإذا تركنا تاريخ الأدب العربى وجدنا الكتب التى يذمها لا تزال هى الأساس الذى يقوم عليه التعليم فى الأزهر

ولا شك فى أنه لا يوجد تعليم فى الدنيا أسوأ من هذا التعليم الذى ينقض بعضه بعضاً ، ويوقع الطلاب فى حيرة لا يدرون فيها شيئاً ، ولا يوجد فيه من الانسجام ما ينسجم به بعضهم مع بعض ، وما ينسجم به جميعهم مع الناس جميعاً .

عبد المتعال الصعيدى

حكم فى القضية ٣٠٢ جنح عسكرية طنطا سنة ١٩٤٢ ضد الخواجه كوستە دلاسى صاحب فرن بدسوق بتغريمه ٥ جنيه والنشر والتعليق والغلق ثلاثة أيام على مصاريفه وذلك لبيعه خبزاً بسعر أكثر من المحدد بالتسعيرة .